

Divine Honoring, Human Stewardship, and the Reconstruction of Earth: A Qur'anic-Maqāṣid Approach to Islamic Law and Civilizational Responsibility

التكريم الإلهي والاستخلاف الإنساني وعمارة الأرض: مقارنة قرآنية مقاصدية في القانون الإسلامي والمسؤولية الحضارية

Soran Jazzar Amin

Department of Quranic Sciences and Islamic Education, Faculty of Education for Human Sciences, University of Anbar, Iraq
Email: sor24h4007@uoanbar.edu.iq

Ahmed Khattal Mukhlif

Department of Quranic Sciences and Islamic Education, Faculty of Education for Human Sciences, University of Anbar, Iraq

ABSTRACT

This study aims to unveil the integrated Qur'anic system concerning the true nature of human existence by clarifying the interconnected relationship between divine honoring as the starting point, stewardship (istikhlaf) as the path, and reconstruction (ta'mir) as the goal, and seeks to correct the conception that separates the unseen dimension of honoring from the functional dimension of obligation in human life, thereby offering a more comprehensive vision of the purposes of creation that links the unseen world with the visible world. The study employs an inductive method to trace the Qur'anic verses that establish these concepts—namely, by tracking the term and its meanings across different contexts—supported by an analytical method to link their meanings to the contemporary civilizational context and to deduce the interconnections governing man's transition from merely a honored being to a steward responsible for building the earth, studying this objectively and comprehensively. The findings show that divine honoring through the breathing of the spirit and the teaching of names represents the stage of preparation and qualification that grants man his eligibility; that stewardship represents the legislative framework regulating human behavior with the values of justice and trust; while reconstruction represents the applied fruit of this path, which is realized only by harnessing resources with awareness and responsibility, far from corruption and purely material exploitation. The study concludes that man's civilizational function is threatened with imbalance if the stewardship spirit is absent from it, and it affirms the necessity of restoring consideration for the concept of sustainable development from a Qur'anic perspective that balances material investment with the preservation of human values, in order to ensure the continuity of a dignified life and to realize the greatest purpose of creation—namely, reconstruction founded upon tauhid.

Keywords: Divine honoring, civilizational responsibility, stewardship of the earth, Maqasid Sharia

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن المنظومة القرآنية المتكاملة لحقيقة الوجود الإنساني من خلال تبيان العلاقة الترابطية بين التكريم الإلهي كمنطلق والاستخلاف كمسار والتعمير كغاية وتسعى إلى تصحيح المفهوم الذي يفصل بين البعد الغيبي التشريفي والبعد الوظيفي التكليفي في حياة الإنسان مما يعطي تصورا أشمل لمقاصد الخلق يربط بين عالم الغيب وعالم الشهادة. تتضمن هذه الدراسة



المنهج الاستقرائي لتتبع الآيات القرآنية المؤسسة لهذه المفاهيم وهي طريقة تتبع اللفظ ودلالاته في السياقات المختلفة معضدا بالمنهج التحليلي لربط دلالاتها بالسياق الحضاري المعاصر واستنباط الروابط البينية التي تحكم انتقال الإنسان من مجرد كائن مكرم إلى خليفة مسؤول عن عمارة الأرض ودراساتها موضوعية شاملة. تبين أن التكريم الإلهي بنفخ الروح وتعليم الأسماء يمثل مرحلة الإعداد والتأهيل التي تمنح الإنسان الأهلية وأن الاستخلاف يمثل الإطار التشريعي الذي يضبط السلوك البشري بقيم العدل والأمانة بينما يمثل التعمير الثمرة التطبيقية لهذا المسار حيث لا يتحقق إلا بتسخير الموارد بوعي ومسؤولية بعيدا عن الإفساد والاستغلال المادي البحث. تضمنت هذه الدراسة بيان أن الوظيفة الحضارية للإنسان مهددة بالاختلال إذا غابت عنها الروح الاستخلافية وقد خلصت إلى ضرورة إعادة الاعتبار لمفهوم التنمية المستدامة من منظور قرآني يوازن بين استثمار المادة وحفظ القيم الإنسانية لضمان استمرار الحياة الكريمة وتحقيق الغاية العظمى من الخلق وهي العمارة القائمة على التوحيد.

الكلمات الرئيسية: التكريم الإلهي، الاستخلاف، عمارة الأرض، مقاصد الشريعة.

المقدمة

يحتل الإنسان مكانة محورية في التصور القرآني للوجود، إذ لم يقتصر الخطاب القرآني على بيان أصل خلقه وغاية وجوده، بل رسم منظومة متكاملة تحدد مكانته في الكون، وطبيعة مسؤوليته، والغاية من وجوده على الأرض. ويتجلى هذا التصور في جملة من المفاهيم القرآنية الأساسية، من أبرزها التكريم الإلهي، والاستخلاف، وعمارة الأرض، وهي مفاهيم لا ينبغي النظر إليها بوصفها موضوعات منفصلة، بل باعتبارها حلقات مترابطة في بناء الرؤية القرآنية للإنسان ومسؤوليته الحضارية. فقد قرر القرآن الكريم مبدأ التكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء: ٧٠)، وربط وجود الإنسان بمسؤولية الاستخلاف في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)، كما أشار إلى وظيفة عمارة الأرض في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١). وتكشف هذه الآيات عن أبعاد متكاملة لحقيقة الوجود الإنساني، تبدأ بالتكريم بوصفه أساساً للقيمة الإنسانية، وتتم بالاستخلاف باعتباره إطاراً للمسؤولية والتكليف، وتنتهي بالتعمير باعتباره تجسيدا عمليا لهذه المسؤولية في الواقع.^١

ولا تنحصر دلالة هذه المفاهيم في المجال العقدي أو الوعظي، بل تمتد إلى المجال التشريعي والأخلاقي الذي ينظم علاقة الإنسان بنفسه وبغيره وبالموارد التي سخرها الله له. فالتكريم يقتضي صيانة الكرامة الإنسانية، والاستخلاف يستلزم تحمل الأمانة والالتزام بالعدل، أما التعمير فيقتضي توظيف القدرات والموارد فيما يحقق المصالح ويدرك المفسدات. ومن هذا المنطلق، فإن فهم المسؤولية الحضارية في الإسلام يقتضي الجمع بين البعد القيمي الذي يحدد مكانة الإنسان والبعد التكليفي الذي يضبط سلوكه، والبعد العملي الذي يقيس أثر أفعاله في الحياة الإنسانية والكونية.^٢

^١ القرآن الكريم، سورة الإسراء، الآية ٧٠؛ سورة البقرة، الآية ٣٠؛ سورة هود، الآية ٦١. وانظر في تفسير هذه الآيات: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير الآيات المذكورة.

^٢ انظر: يوسف القرضاوي، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١.

وتؤكد أهمية هذا الترابط في ظل التحديات الحضارية المعاصرة، التي تشمل تفاقم المشكلات البيئية، واستنزاف الموارد الطبيعية، واتساع أنماط الاستهلاك، وتزايد التوتر بين متطلبات النمو الاقتصادي وضرورات المحافظة على مقومات الحياة. وفي هذا السياق، لا يكفي النظر إلى التنمية من زاوية زيادة الإنتاج أو توسيع الاستثمار المادي، بل ينبغي تقييمها أيضًا في ضوء العدالة، وحفظ الكرامة الإنسانية، ومنع الضرر، وصيانة الموارد للأجيال القادمة. وقد تناولت الأدبيات المعاصرة في أخلاقيات البيئة الإسلامية مفهوم الاستخلاف والأمانة باعتبارهما أساسين لتقرير مسؤولية الإنسان عن الاستخدام الرشيد للموارد، وربطت بين المرجعية الدينية ومتطلبات الاستدامة.³ ومن ثم، تبرز الحاجة إلى استعادة الدلالات القرآنية للتعمير ضمن تصور حضاري يجعل التنمية وسيلة لتحقيق المصالح الإنسانية، لا مبررًا للاستغلال غير المنضبط للطبيعة.

ويتيح علم مقاصد الشريعة إطارًا مناسبًا لفهم هذه المسؤولية وتحديد أبعادها التشريعية؛ إذ لا تقتصر المقاصد على تفسير الأحكام الجزئية، وإنما تساعد على استيعاب الغايات الكلية للشريعة في تحقيق المصالح، وإقامة العدل، وحماية الحقوق، ومنع المفساد. ويؤكد جاسر عودة أهمية النظر إلى الشريعة من خلال مقاصدها ضمن منهج منظومي يراعي الترابط بين أجزاء النظام الشرعي، وتعدد أبعاده، وقدرته على الاستجابة للتحويلات الواقعية.⁴ كما يذهب محمد هاشم كمالي إلى إمكان اعتبار التنمية المستدامة من المقاصد العليا للشريعة، بالنظر إلى ارتباطها بالعدل، والمصلحة، والاعتدال، والكرامة الإنسانية، والمسؤولية في استخدام الموارد.⁵ وبناءً على ذلك، يمكن النظر إلى التكريم والاستخلاف والتعمير باعتبارها مفاهيم قرآنية ذات دلالات مقاصدية متكاملة: فالتكريم يؤسس لقيمة الإنسان وحقوقه، والاستخلاف يحدد إطار الأمانة والمسؤولية، والتعمير يمثل المجال العملي الذي تتحقق فيه المصالح وتُصان فيه مقومات الحياة.

وعلى الرغم من أهمية هذه المفاهيم في بناء التصور الإسلامي للإنسان والكون، فإن تناولها البحثي قد يتجه إلى دراسة كل مفهوم بصورة مستقلة، أو التركيز على أحد أبعادها العقدية أو الأخلاقية أو البيئية. وتقدم بعض الدراسات المعاصرة معالجة للمسؤولية البيئية من منظور مقاصد الشريعة، كما تناولت دراسات أخرى علاقة القرآن بالتنمية البيئية المستدامة وأهداف التنمية المستدامة. ومن ذلك دراسة سلامة فردوس حول القرآن والتنمية البيئية المستدامة في إندونيسيا، التي وظفت مقاصد الشريعة في تحليل العلاقة بين النص القرآني والاستدامة البيئية.⁶ ومع أهمية هذه الإسهامات، تظل هناك حاجة إلى دراسة تجمع بين التكريم الإلهي والاستخلاف وعمارة الأرض في إطار تحليلي واحد، وتكشف عن العلاقات التي تربط بينها، وتوضح كيف ينتقل الخطاب القرآني من تقرير قيمة الإنسان إلى تأسيس مسؤوليته الشرعية، ثم إلى توجيه ممارسته

³ The Cambridge Handbook of Islam and Environmental Law, Chapter 18, *Towards Environmental Sustainability*, (Cambridge University Press, 2026)

⁴ Jasser Auda, *Maqasid Al-Shariah as Philosophy of Islamic Law: A Systems Approach* (London and Washington, DC: International Institute of Islamic Thought, 2008)

⁵ Mohammad Hashim Kamali, "Maqasid and Sustainable Development," in *Goals and Purposes of Shariah: Maqasid in Theory and Practice* (Oxford: Oxford University Press, 2025), 315–332

⁶ Slamet Firdaus, "Al-Qur'an dan Pembangunan Lingkungan Berkelanjutan di Indonesia: Analisis Maqashid Syariah untuk Pencapaian SDGs," *Al-Mustashfa: Jurnal Penelitian Hukum Ekonomi Syariah* 7, no. 2, 2022, <https://doi.org/10.24235/jm.v7i2.11594>

الحضارية. وتتمثل الإضافة التي تسعى إليها هذه الدراسة في بناء قراءة ترابطية لهذه المفاهيم الثلاثة، مع إبراز دلالاتها المقاصدية والتشريعية وصلتها بالتنمية المستدامة، بدلاً من الاختصار على تناولها بوصفها مفاهيم متجاوزة أو مبادئ أخلاقية عامة.

وانطلاقاً من هذه الإشكالية، تتمحور الدراسة حول السؤال الرئيس الآتي: كيف يؤسس القرآن الكريم منظومة مترابطة من التكريم الإلهي والاستخلاف وعمارة الأرض، وكيف يمكن توظيف هذه المنظومة في بناء تصور مقاصدي للمسؤولية الحضارية والتنمية المستدامة؟ ويتفرع عن هذا السؤال عدد من التساؤلات، منها: ما الدلالات القرآنية للتكريم والاستخلاف والتعمير في سياقاتها المختلفة؟ وما طبيعة العلاقة المفاهيمية والتشريعية التي تربط هذه المفاهيم؟ وما المبادئ المقاصدية والأخلاقية التي يمكن استنباطها لتوجيه ممارسة الإنسان لمسؤوليته في عمارة الأرض؟ وإلى أي مدى يمكن أن يسهم هذا التصور في ترشيد استغلال الموارد وتحقيق التوازن بين التنمية المادية وحماية المصالح الإنسانية والبيئية؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات، تعتمد الدراسة المنهج الاستقرائي في تتبع الآيات القرآنية المتعلقة بالتكريم والاستخلاف والتعمير، ورصد دلالاتها في سياقاتها المختلفة، كما تعتمد المنهج التحليلي في دراسة العلاقات المفاهيمية بين هذه المصطلحات والكشف عن أبعادها العقدية والأخلاقية والتشريعية. وتستعين الدراسة بالتحليل المقاصدي لبيان صلة هذه المفاهيم بتحقيق المصالح، وإقامة العدل، ومنع الفساد، وترشيد الانتفاع بالموارد. ويساعد الجمع بين هذه المناهج على بناء قراءة موضوعية تتجاوز الفصل بين البعد التشريعي للإنسان والبعد التكليفي لمسؤوليته، وتربط المعاني القرآنية بأبعادها التطبيقية في الواقع الحضاري المعاصر.

وتهدف الدراسة إلى الكشف عن البنية القرآنية المتكاملة التي تربط التكريم الإلهي بالاستخلاف وعمارة الأرض، وتحليل الأسس المقاصدية للمسؤولية الحضارية، وبيان إمكانات توظيفها في تأصيل مفهوم التنمية المستدامة من منظور إسلامي. وتنطلق من فرضية مفادها أن التكريم يمثل أساس القيمة الإنسانية وأهلية تحمل المسؤولية، وأن الاستخلاف يحدد الإطار الأخلاقي والتشريعي لممارستها، بينما يمثل التعمير غايتها العملية التي لا تتحقق على الوجه الأمثل إلا بالالتزام بالتوحيد والعدل والأمانة ومراعاة المصالح العامة. وبذلك تسعى الدراسة إلى الإسهام في بناء تصور قرآني يجعل عمارة الأرض مسؤولية شرعية وحضارية متكاملة، لا مجرد نشاط مادي أو إنجاز اقتصادي، ويوجه التنمية نحو تحقيق حياة كريمة ومستدامة في إطار القيم الإسلامية.

منهجية البحث

تعتمد هذه الدراسة المنهج النوعي (الكيفي) من خلال البحث المكتبي، وتوظف المنهج الاستقرائي والمنهج التحليلي والمنهج المقاصدي، بهدف الكشف عن المنظومة القرآنية التي تربط بين التكريم الإلهي والاستخلاف وعمارة الأرض، وبيان دلالاتها في بناء مفهوم المسؤولية الحضارية من منظور القانون الإسلامي. وينطلق هذا الاختيار المنهجي من النظر إلى مقاصد

الشرعية بوصفها إطاراً لفهم الغايات الكلية للأحكام الشرعية، وتحليل العلاقات بين النصوص والقيم والمصالح، بما يتيح دراسة المفاهيم القرآنية في سياقاتها المتكاملة وربطها بالتحديات الحضارية المعاصرة.^٧

أولاً، يُوظف المنهج الاستقرائي في جمع الآيات القرآنية المتعلقة بمفاهيم التكريم الإلهي والاستخلاف وعمارة الأرض، من خلال تتبع الألفاظ ذات الصلة، مثل: التكريم، والخلافة، والاستخلاف، والعمارة، والأمانة، والإصلاح، والإفساد. ولا يقتصر الاستقراء على حصر الألفاظ، بل يشمل دراسة سياقاتها النصية والموضوعية، والاستعانة بكتب التفسير المعتمدة، ولا سيما جامع البيان عن تأويل آي القرآن لمحمد بن جرير الطبري، والجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي، والتنوير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور، بهدف تحديد الدلالات اللغوية والتفسيرية للمفاهيم المدروسة، والتمييز بين المعاني المباشرة للنصوص وما يمكن استنباطه منها من دلالات تشريعية ومقاصدية.^٨

ثانياً، يُستخدم المنهج التحليلي لدراسة دلالات الآيات المستقرأة، والكشف عن أوجه الترابط بين التكريم بوصفه أساساً للكرامة الإنسانية، والاستخلاف باعتباره إطاراً للمسؤولية والتكليف، وعمارة الأرض بوصفها مجالاً عملياً لتحقيق المصالح وإقامة العمران. ويستند التحليل إلى القراءة السياقية والموضوعية للنص القرآني، مع مراعاة وحدة الموضوع وتكامل الدلالات. كما تُستحضر الأدبيات الفقهية المعاصرة المتعلقة بحماية البيئة في الشريعة الإسلامية، ولا سيما كتاب رعاية البيئة في شريعة الإسلام ليوسف القرضاوي، للاستفادة من معالجته للأسس الشرعية والأخلاقية لحماية البيئة وترشيد الانتفاع بالموارد.^٩ ويهدف ذلك إلى بيان كيفية انتقال المفاهيم القرآنية من إطارها القيمي العام إلى مبادئ يمكن توظيفها في تحليل المسؤولية الشرعية عن الأفعال التي تؤثر في الإنسان والبيئة والمصلحة العامة.

ثالثاً، تعتمد الدراسة المنهج المقاصدي لتحليل الأبعاد التشريعية للمفاهيم المدروسة، من خلال ربطها بمقاصد الشريعة الإسلامية، ولا سيما تحقيق المصالح، ودرء المفاسد، وإقامة العدل، وصيانة الكرامة الإنسانية، وحماية النفس والمال، والمحافظة على الموارد الضرورية لاستمرار الحياة. وتستفيد الدراسة من المقاربة المنظومية لمقاصد الشريعة التي طورها جاسر عودة في كتابه (*Maqasid Al-Shariah as Philosophy of Islamic Law: A Systems Approach*)، الذي يؤكد أهمية النظر إلى الشريعة باعتبارها منظومة مترابطة ذات غايات كلية، بدلاً من الاقتصار على معالجة الأحكام بصورة تجزئية.^{١٠} كما تستفيد من دراسة محمد هاشم كاملي حول مقاصد الشريعة والتنمية المستدامة، التي تبحث في إمكان إدراج الاستدامة ضمن نطاق المقاصد بالنظر إلى صلتها برفاه الإنسان والمسؤولية الأخلاقية في استخدام الموارد.^{١١} ويساعد هذا المنهج على

⁷ Jasser Auda, *Maqasid Al-Shariah as Philosophy of Islamic Law: A Systems Approach*, 2008.

⁸ Mohammad Hashim Kamali, "Maqasid and Sustainable Development," in *Goals and Purposes of Shariah: Maqasid in Theory and Practice*, 2025.

^٩ القرضاوي، يوسف، *رعاية البيئة في شريعة الإسلام*. القاهرة: دار الشروق، 2001.

^{١٠} الطبري، محمد بن جرير. *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*.

^{١١} ابن عاشور، محمد الطاهر. *التنوير والتنوير*. تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤.

استنباط المبادئ الشرعية ذات الصلة بعمارة الأرض، مع التمييز بين ما يقرره النص مباشرة وما ينتج عن الاجتهاد المقاصدي في ضوء الواقع المعاصر.

وتتمثل مصادر البيانات في المصادر الأولية، وفي مقدمتها القرآن الكريم وكتب التفسير، والمصادر الثانوية التي تشمل كتب أصول الفقه ومقاصد الشريعة، والدراسات المحكمة المتعلقة بالاستخلاف والمسؤولية الحضارية والفقه البيئي والتنمية المستدامة. ويجري اختيار المصادر وفق صلتها المباشرة بإشكالية البحث وموثوقيتها العلمية، مع مراعاة التنوع بين المصادر التراثية والدراسات المعاصرة. كما تُستخدم الأدبيات القانونية والفقهية ذات الصلة لتحديد مدى إمكان توظيف المفاهيم القرآنية في بناء تصور مقاصدي للمسؤولية الشرعية، دون افتراض أن جميع المبادئ الأخلاقية الواردة في النصوص تمثل أحكامًا قانونية تفصيلية بالضرورة.

أما إجراءات التحليل، فتتمثل في أربع مراحل مترابطة: جمع الآيات ذات الصلة بمفاهيم التكريم والاستخلاف وعمارة الأرض؛ وتصنيفها وفق موضوعاتها وسياقاتها ودلالاتها؛ وتحليل العلاقات المفاهيمية والتشريعية بينها في ضوء التفسير وأصول الفقه ومقاصد الشريعة؛ ثم استخلاص المبادئ المقاصدية التي يمكن توظيفها في بناء تصور قرآني للمسؤولية الحضارية والتنمية المستدامة. وتُناقش النتائج في ضوء الأدبيات السابقة لتحديد أوجه الاتفاق والاختلاف، وبيان الإضافة العلمية للدراسة في مجال القانون الإسلامي.

ولتعزيز اتساق النتائج وموثوقيتها، تلتزم الدراسة بالتمييز بين التفسير المستند إلى النص القرآني، والاستنباط الفقهي والمقاصدي، والتطبيقات المعاصرة المستخلصة منهما. كما تراعي السياقات التفسيرية والأصولية عند الانتقال من الدلالة القرآنية إلى الاستنتاج القانوني، وتتجنب نسبة الأحكام التفصيلية إلى النصوص دون مستند معتبر. وبذلك تسعى الدراسة إلى تقديم تحليل علمي متكامل يوضح كيف تتضافر مفاهيم التكريم والاستخلاف وعمارة الأرض في تأسيس مسؤولية شرعية وحضارية تستند إلى التوحيد، وتلتزم بالعدل والأمانة، وتسهم في تحقيق التنمية المستدامة وفق مقاصد الشريعة الإسلامية.

النتائج والمناقشات

التكريم الإلهي بين مفهومه ومظاهره في القرآن الكريم

المطلب الأول: بيان مفهوم التكريم

التكريم لغة: كَرَّمَ يُكْرِمُ، تَكْرِيمًا^{١٢} والتكريم التَّفْضِيلُ، والتشريف^{١٣}

التكريم اصطلاحاً: هو ذلك الشرف والفضل والمحسن الجملة التي منحها الله لبني آدم، ويميزهم بها عن سائر الخلق، ويتجلى هذا التكريم في خلقهم بأحسن هيئة وأكمل صورة، وإعطائهم الأدوات المعرفية العليا كالسمع والبصر والفؤاد، ليفقهوا

١٢ ينظر: صاحب بن عباد، المحيط في اللغة (٦/٢٦٢)

(١٣) ينظر: احمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة (٣/١٩٢٢)، ابو نصر الجوهري الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٥/٢٠٢١)

بها ويُتبرأ من المضار، كما يشمل هذا التكريم تسليطهم على بقية الكائنات وتسخيرها لهم، فهو، إذن، كَرَمٌ أصيل مرتبط بنفي نقصان عن الذات الإنسانية، وليس له علاقة بكرم المال^{١٤}

المطلب الثاني: مظاهر التكريم الإلهي في القرآن الكريم

أولاً: نفخ الروح الإلهية في الإنسان

تُعد نفخة الروح الإلهية أعظم مظاهر تكريم الإنسان في القرآن الكريم، فهي التي نقلته من مجرد مخلوق مادي إلى كائن عاقل مكلف قادر على المعرفة والاختيار، وبها استحق شرف الخلافة في الأرض وظهرت منزلته بين سائر المخلوقات، وقد وردت في القرآن الكريم آيات بينات تؤسس لهذا المظهر التكريمي، وتجلي أبعاده ودلالاته، ومنها:

قوله تعالى (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)^{١٥}

ويتضح من هذه الآية دلائل كثيرة منها:

● مرحلة التسوية:

قال تعالى (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ) يشير إلى إتمام خلق الإنسان وتعديل صورته وإكماله في أحسن هيئة، وهي المرحلة التي تسبق هبة الحياة.^{١٦}

● جوهر التكريم:

يكمن التكريم الأسمى في هذا الفعل الإلهي المباشر: (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي). ف النفخ هنا هو هبة الحياة الربانية، والفعل الذي نقل هذا الجسد المسوى من طين إلى مرتبة البشر الحي المكرم، وهو ما يجعله كائناً فريداً مستعداً لتلقي التشريف التالي.^{١٧}

● دلالة إضافة الروح الى الله :

إن أعظم صور التكريم في هذا السياق هي "إضافة الروح" إلى الذات الإلهية (مِنْ رُوحِي). هذه الإضافة، كما يوضح المفسرون، ليست إضافة جزءٍ أو بعض، بل هي إضافة تشريفٍ وتكريم فالروح هي خلقٌ من خلق الله، ولكن نسبتها إليه تعالى مباشرة هو تشريفٌ عظيمٌ للإنسان لم يُمنح لغيره من المخلوقات، وهو ما يرفع من قدره ومنزلته.^{١٨}

● البعد الإلهي لهذا للتكريم:

(١٤) ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٩٣/١٠)، ابن جرير الطبري، جامع البيان (٥٠١/١٧)، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٥/٣)

١٥ سورة الحجر، (الآية ٢٩)

(١٦) ينظر: البغوي ابو محمد، معالم التنزيل في تفسير القرآن (٥٧/٣)

١٧ ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٤/١٠)

١٨ ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٤/١٠)

كتتويجٍ لِهَذينِ التَّكْرِيمِ (تسوية الخلقة ونفخ الروح المشرفة)، جاء الأمر الإلهي الفوري للملائكة: (فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ). وهذا مظهر تكريم ثالث في الآية نفسها، حيث أمر الله الملائكة بالسجود لهذا المخلوق الجديد، وهو سجدود تحية وتكريم واعتزافٍ بفضله، لا سجدود عبادة لله.^{١٩}

• الأثر في حياة الإنسان

تعد هذه الروح الإلهية هي محرك التعمير وأساس أهليته. فيها انتقل الإنسان من كونه مادة جامدة إلى كائن حي عاقل، يمتلك الإرادة والقدرة على الاختيار، وهي المقومات الأساسية اللازمة لحمل أمانة بناء الحياة على الأرض.

ثانياً: التكريم بالمعرفة

يُعد تعليم الأسماء مظهراً مركزياً من مظاهر تكريم آدم وتفضيله، وهو المقام الذي أظهر الله فيه شرف آدم على الملائكة، رداً على سؤالهم عن حكمة الخلافة، و يأتي هذا التكريم ليبين فضل آدم عليهم بالعلم، باعتباره الأداة الأساسية التي سيحتاجها في مهمته.

وقد وردت في القرآن الكريم آيات بينات تؤسس لهذا المظهر التكريمي، وتجلي أبعاده ودلالاته، ومنها:

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)^{٢٠}

ويتضح من تحليل النصوص التفسيرية أبعاد هذا التكريم المعرفي في ما يلي:

• مصدر التكريم :

يكن التكريم في كون التعليم جاء من الحق تعالى مباشرة، فالله هو الذي (عَلَّمَ آدَمَ)، وهذا التعليم كان إلهاماً ضرورياً (علمه ضرورة) أودعه الله في آدم، مما منحه هذه المعرفة هذا التعليم الإلهي المباشر هو الذي حفظ عليه هذا العلم، وهو ما يمنح هذه المعرفة أصالتها وقيمتها العليا.^{٢١}

• شمولية المعرفة:

أكدت النصوص التفسيرية على أن لفظ كُلُّهَا يفيد الإحاطة والعموم. فالرأي الأرجح أن الله تعالى علمه أسماء جميع الأشياء كلها جليلاً وحقيقياً ويشمل ذلك أسماء كل دابة وطيور، وأسماء ما يتعارف به الناس (إنسان، أرض، بحر)، بل وحتى أسماء الأدوات الدقيقة (كالصحفة والقدر). وتدخّل في هذا العموم "جميع اللغات، فكلها أسماء، وهو ما يمنح الجنس البشري القابلية الفطرية للتعلم والتسمية وفهم خصائص الكون".^{٢٢}

١٩ ينظر: ابن جرير الطبري، جامع البيان (١٠١/١٧)

(٢٠) (البقرة: ٣١).

(٢١) ينظر: أبو زيد الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٢٠٩/١)، ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١١٩/١)

(٢٢) ينظر: ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم (٨٠/١)، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير (٢٣٥/١)، أسماء بنت محمد

الناصر، الاستنباط عند الخطيب الشربيني في تفسيره السراج المنير (١٤٥)، ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب (٥١٣/١)

• إثبات الأهلوية:

لم يكن التعليم تكريماً نظرياً، بل كان برهاناً عملياً. فالله تعالى (عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ). وسواء كان العرض للأشخاص والمسميات ذاتها (كما هو ظاهر لفظ عرضهم و هؤلاء) أو للأسماء، فإن الغاية كانت واحدة: إثبات أهلية آدم وقدرته المعرفية. وجاء التحدي الإلهي (فَقَالَ أَنْبِئُونِي...) ليس على سبيل تكليف ما لا يطاق، بل على سبيل التقرير والتوقيف (أي إقرارهم بعجزهم وتوقيفهم على حدود علمهم).^{٢٣}

• البعد الإلهي لهذا التكريم :

كانت النتيجة المباشرة هي إقرار الملائكة بالعجز واعترافهم بقصور علمهم (قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا). وبهذا الإقرار، ظهر فضل آدم عليهم، وثبتت أهليته بالعلم والمعرفة، وتبين للملائكة الحكمة الإلهية من جعله خليفة، كونه مُؤَيَّر بأداة العلم التي هي مناط العمارة والخلافة.^{٢٤}

• الأثر في حياة الإنسان:

يمثل هذا العلم أداة التعمير الأولى. فالمعرفة بالأسماء (خصائص الأشياء وقوانينها) هي التي مكنت الإنسان من فهم بيئته، وتطوير الأدوات، وإقامة المجتمعات، وتحويل الموارد الخام إلى حضارة وعمران.

ثالثاً: الخلافة في الأرض:

من أعظم مظاهر تكريم الإنسان أن الله لم يتركه في الأرض وحيداً، بل جعل سائر المخلوقات والكائنات مسخرة لخدمته ومصالحته، ليتمكن من أداء مهمة الخلافة والتعمير.

وقد وردت في القرآن الكريم آيات بينات تؤسس لهذا المظهر التكريمي، وتجلي أبعاده ودلالاته، ومنها:

قوله تعالى (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)^{٢٥}

ويتضح من هذه الآية دلائل كثيرة. منها:

• ماهية الخلافة:

تبيّن النصوص أن مصطلح الخليفة يحمل دالتين تكريميتين متكاملتين:

الدلالة الأولى (الخلافة عن الله): وهي الدلالة الأسمى، وتعني أن هذا الإنسان هو خليفة الله في أرضه. وهذا يعني

أنه مُكْرَّم ومُكَلَّف ب إقامة أحكامه وتنفيذ وصاياه في الأرض، والحكم بالعدل بين الخلق. فهو ممثلٌ للمنهج الإلهي.^{٢٦}

(٢٣) ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٨٣/١)، وهبه الزحيلي، التفسير المنير (١٢٦/١)

(٢٤) ينظر: أبو محمد البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن (٨٠/١)، الواحدي، الوجيز (٩٩)

(٢٥) سورة البقرة الآية (٣٠)

(٢٦) ينظر: محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير (١٣٤٦/٣)

الدلالة الثانية (الخلافة كتنعيم): وتعني أن هذا الجنس البشري "يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل"،

بهدف عمارة الأرض وسكناها.^{٢٧}

فالتكريم هنا مزدوج: تكريم بالمنصب (خليفة الله) وتكريم بالمهمة (عمارة الأرض جيلاً بعد جيل).

• شمولية التكريم :

تؤكد النصوص أن المراد بالخليفة هنا ليس آدم -عليه السلام- فقط بل المقصود هو الجنس البشري. يتضح هذا من سياق حوار الملائكة، حيث إن اعتراضهم الاستكشافي (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) لم يكن موجهاً لآدم تحديداً، بل لما علموه عن الطبيعة البشرية أو قياساً على الجن الذين سكنوا الأرض قبله وأفسدوا فيها. فالتكريم هنا هو للجنس الإنساني الذي سيمنح هذه الفرصة²⁸

• الحوار الملائكي:

يُظهر النص أن قول الملائكة لم يكن على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم، بل كان سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة كأنهم يقولون: يا ربنا، ما الحكمة من خلق صنفٍ منهم سيفسد الأرض، بينما نحن (الملائكة) نعبّد عبادة كاملة (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ)؟ هذا السؤال يجد ذاته يُظهر عظم الحدث وأهمية هذا المخلوق الجديد.²⁹

• الحكمة الإلهية:

جاء الرد الإلهي: (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) ليكشف عن عظم التكريم. فالله تعالى يقرر المضي في هذا الخلق، لعلمه بالمصلحة الراجحة التي تفوق المفسدات المذكورة. هذه المصلحة الراجحة هي جوهر التكريم؛ فالله يعلم أن هذا الخليفة (الجنس البشري) سيوجد فيهم الأنبياء، والرسل، والصديقون والشهداء، والصالحون والعباد، والعلماء العاملون، فالتكريم هنا هو ثقة إلهية بقدرة هذا المخلوق، رغم ضعفه، على الوصول إلى أعلى درجات الصلاح والقرب، ومن المعلوم أنه لا يمكن الإحاطة بحكمة الله كن كل وجه لأننا لو احطنا بحكمته لما عادة حكمة^{٣٠}

الأثر في حياة الإنسان: تمثل الخلافة غاية التكريم ومنهج التنعيم فهي المهمة المباشرة التي تحدد دور الإنسان: فهو ليس مجرد مستفيد، بل هو المسؤول الأول عن إدارة الأرض، وتنميتها، وإقامة العدل فيها، وحفظها من الفساد، وهذا هو جوهر التنعيم المنشود.

رابعاً: تسخير الكون له

(٢٧) ينظر: كاملة الكواري، تفسير غريب القرآن (١٥٦/٦)

(28) ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٢٤/١)، إسماعيل التيمي الاصبهاني إعراب القرآن (٣٠)

(29) ينظر: محمد عبد اللطيف الخطيب، أوضح التفاسير (٧/١)

(٣٠) ينظر: الصابوني، صفوة التفاسير (٤١/١)

لا يكتمل تكريم الخلافة (المهمة) إلا بتكريم التمكين (الأدوات) فمن أعظم مظاهر تكريم الإنسان أن الله تعالى لم يجعله ضيفاً عادياً على الأرض، بل جعله سيداً عليها، وجعل الكون بأسره (ما في السماوات وما في الأرض) مُسخراً لخدمته ومصلحته، ليكون له عوناً على أداء مهمة التعمير.

وقد وردت في القرآن الكريم آيات بينات تؤسس لهذا المظهر التكريمي، وتجلي أبعاده ودلالاته، ومنها:

أ. قوله تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ).^{٣١}

ب. قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً...)^{٣٢}

ويتضح من هاتين الآيتين أبعاد هذا التكريم التمكيني بما يلي :

● مركزية الإنسان:

يكن جوهر التكريم في أن هذا التسخير موجه بشكل مباشر لمنافع الإنسان ومصلحه. فالنصوص تؤكد أن الله خلق هذه الأشياء لمنافعنا، فهي نعم أنعم بها على الناس. هذا الخطاب يضع الإنسان في مركز الكون المستفيد من خيراته، مما يرفع قدره.^{٣٣}

● شمولية التسخير:

تؤكد النصوص على شمولية هذا التسخير، فهو يشمل أجرام السماوات كالشمس والقمر والنجوم، وما في الأرض من دابة وشجر وجبل وجماد وبحار وأنهار. كما أن عبارة جَمِيعًا مِّنْهُ هي بيان بأن هذا التسخير هو فضل وإحسان وإنعام من الله وحده، فهو المتفرد بخلق^{٣٤}

الأثر في حياة الإنسان:

يُعتبر التسخير هو الأداة التنفيذية للتعمير. فإذا كانت الخلافة هي (المنهج)، فالتسخير هو (الأرض والموارد) التي سيُطبق عليها المنهج. فبواسطة تسخير الشمس والماء والزرع والأنعام، يتمكن الإنسان من تحويل الأرض من حالة البداوة إلى حالة التعمير والحضارة

يتضح مما سبق أن مظاهر التكريم الإلهي في القرآن الكريم لم تكن تكريماً تشريفاً سلبياً يقف عند حدود الإجلال، بل كانت عملية تأهيل إلهية ممنهجة، وإعداداً دقيقاً للإنسان ليضطلع بالمهمة الأسمى وهي التعمير،

وقد تجلت هذه العملية التأهيلية في سلسلة منطقية متكاملة، فالتكريم بـ (نفخ الروح) منحه الأهلوية الوجودية والعقلية (الجوهر). والتكريم بـ (تعليم الأسماء) منحه الأداة المعرفية اللازمة للفهم (التأهيل). ثم جاء التكريم بـ (الخلافة) ليحدد له

(٣١) (الجاثية: ١٣)

(٣٢) (لقمان: ٢٠).

(٣٣) ينظر: البغوي أبو محمد، معالم التنزيل في تفسير القرآن (٧/٢٤٢)، المحلي جلال الدين (٣٧٣)

(٣٤) ينظر: ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧٨/٢١)

المهمة والغاية (المنهج). وأخيراً، جاء التكريم بـ (تسخير الكون) ليهيئ له المسرح ويمده بالموارد اللازمة لتنفيذ هذه المهمة (الأدوات).

وبهذا، يثبت هذا المبحث أن التكريم في المنظور القرآني هو نقطة الانطلاق والأساس الذي لا غنى عنه للانتقال إلى التعمير، وهو الحكمة الأسمى من الخلق.

بيان مفهوم الاستخلاف

المطلب الأول: تحليل مفهوم الاستخلاف

الاستخلاف لغة: استخلفَ يستخلف، استخلفاً، استخلف فلاناً: جعله خليفته^{٣٥}

الاستخلاف اصطلاحاً، هو تكليف الله للإنسان بأن يكون خليفته في الأرض، ويتمثل هذا التكليف في أمرين:

- عبادة الله طوعاً والالتزام بشرائعه.

- عمارة الأرض وإصلاحها وإدارة شؤونها بالعدل والصلاح، وفقاً لمنهج الله.³⁶

لا يقف مفهوم الاستخلاف عند حدود التنظير العقائدي، بل هو في جوهره مشروع عمل ومنهج حياة فإله تعالى

حين كلف الإنسان بعمارة الأرض، لم يقصد مجرد البناء المادي، بل أسس لمسؤولية حضارية شاملة

وفي هذا العصر الذي يشهد تحديات معقدة، تبرز هذه المسؤولية بشكل أوضح. فمن أزمات البيئة والمناخ، إلى

تحديات العولمة والتفكك الاجتماعي، وصولاً إلى ثورات التكنولوجيا والمعرفة؛ يصبح لزاماً علينا إعادة قراءة الاستخلاف

كإطار حاكم لضبط بوصلة الإنسان المعاصر.

هذا المطلب سيتناول الأبعاد العملية لهذا التعمير، ومسؤوليات الإنسان الحضارية في مجالاتها الروحية، والاجتماعية،

والمادية، والمعرفية، وكيف يمكن لها أن تقدم حلولاً لواقعنا اليوم.

أولاً: المسؤوليات الحضارية للإنسان

في هذا الجزء، نتناول المبادئ الأخلاقية والمنهجية التي يجب أن يلتزم بها الإنسان الخليفة وهو يمارس التعمير هذه

المسؤوليات هي التي تضمن ألا يتحول التعمير إلى تدمير، وألا يصبح الاستخلاف استغلالاً.

أولاً : مسؤولية الأمانة : تُعد الأمانة المسؤولية الكبرى التي قَبِلَ الإنسان حملها قال تعالى (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)^{٣٧}

(٣٥) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة (١/٦٤٨)

(36) ينظر: أحمد حسن فرحات، الخلافة في الأرض (٢١)

(٣٧) الانفال (٧٢)

وهذه الأمانة ليست مجرد وديعة مالية، بل هي مسؤولية شاملة عن كل ما سخره الله للإنسان، والغاية منها هي الإصلاح. وفي المقابل، فإن خيانة هذه الأمانة هي الإفساد في الأرض، والذي يتجلى في عصرنا الحاضر في صورتين مدمرتين: أ. الإفساد البيئي:

إن الأرض ومواردها ليست ملكاً مطلقاً للإنسان، بل هي أمانة رعاية سيسأل عنها. وما يشهده العالم اليوم من تغير مناخي، وتلوث، واستنزاف للموارد، هو تشخيص دقيق لقوله تعالى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾^{٣٨} فالإخلال بالتوازن البيئي هو إخفاق في حمل الأمانة، ومسؤولية الإنسان الخليفة هي الكف عن هذا الإفساد بتبني التنمية المستدامة التي تحفظ حق الأجيال القادمة في هذه الموارد^{٣٩}

ب. الفساد الإداري والمالي:

لا يقل خطورة عن الإفساد البيئي خيانة أمانة الولاية العامة؛ فكل منصب عام هو أمانة أمر الله بأدائها لأهلها ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾^{٤٠} وما تعاني منه المجتمعات، كالواقع في الوطن العربي وغيره، من محسوبية ورشوة واختلاس للمال العام، هو خيانة عظمى لهذه الأمانة وإفساد منظم يدمر مقدرات الأمة.^{٤١} ويقدم الإسلام حلاً جذرياً لهذا الفساد لا يقتصر على العقوبة، بل يبدأ من تفعيل الرقابة الذاتية (الوازع الديني)، وتطبيق مبدأ الكفاءة والأمانة في إسناد المناصب ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾^{٤٢} ومساءلة المسؤولين، باعتبار أن المنصب تكليف لا تشريف.

فمسؤولية الأمانة، بيئياً وإدارياً، هي الضابط الأخلاقي لعملية التعمير، وهي ما يفرق بين الاستخلاف الذي أراده الله، والاستغلال الذي يمارسه الإنسان الظلوم الجاهل.

ثانياً : مسؤولية العدل:

إذا كانت "الأمانة" هي الضابط الأخلاقي للاستخلاف، فإن "العدل" هو غايته التطبيقية قال تعالى (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)^{٤٣} وقال اهل التفسير على أن القسط في الآية هو الحق والعدل أي ليتعامل الناس بينهم بالعدل^{٤٤}

(٣٨) الروم (٤١)

(٣٩) ينظر: مجمع الفقه الإسلامي التلوث البيئي قضايا ومزايا (٤٤)

(٤٠) النساء (٨٥)

(٤١) ينظر: محمد صالح عطية، الفساد الإداري ماهيته وعلاجه في الفكر الإسلامي (٣٥)

(٤٢) القصص (٢٦)

(٤٣) الحديد (٢٥)

(44) ينظر: ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٢٥/٢٢)

إن غاية هذا التكليف هي قيام الناس بدين الله وتحصيل مصالحهم التي لا تستقيم إلا بالعدل. وعليه، فمسؤولية الإنسان الخليفة ليست فقط أن يكون عادلاً في نفسه، بل أن يسعى لإقامة القسط كمنهج حياة شامل، وهو ما يفرض عليه واجبات معاصرة واضحة:

اقتصادياً: تتمثل المسؤولية في مواجهة الأنظمة التي تركز الثروات (كَي لَا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ)^{٤٥}؛ وهذا يتطلب محاربة الاحتكار، وضمان عدالة الأجور، وتفعيل آليات التكافل كالزكاة لضمان حد الكفاية أي الحياة الكريمة لكل فرد.

اجتماعياً: يتمثل العدل في المساواة المطلقة أمام القانون، ومحاربة المحسوبية والتمييز، وهذا يتطلب إتاحة تكافؤ الفرص للجميع في التعليم والوظائف بناءً على الكفاءة والأمانة، وليس على الوسطة أو الانتماء، تطبيقاً للمبدأ الإلهي ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾^{٤٦}.

مسؤولية العلم والمعرفة

يُعد العلم الركيزة الأساسية لتحقيق مبدأ الاستخلاف وعمارة الأرض، إذ لا يمكن تحقيق التنمية البشرية بالجهل. فالإنسان مُنح العقل ووجه للتفكير والنظر، وسُخر له الكون تسخير تمكين لا تسخير إباحة مطلقة، مما يجعل المعرفة أمانة تستلزم توجيهها نحو الإصلاح وحفظ القيم الإنسانية.

في العصر الحديث، برزت مجالات دقيقة كالذكاء الاصطناعي والهندسة الوراثية، التي تمثل ذروة التسخير العلمي، لكنها في الوقت ذاته تحمل تحديات أخلاقية كبرى. ومن منظور إسلامي، تُقبل هذه العلوم ما دامت موجهة لتحقيق المقاصد الإنسانية الكبرى، وتُرفض إذا تجاوزت الحدود الفطرية والأخلاقية.

الضوابط الحاكمة للتسخير العلمي:

ضابط الغاية: يُشترط أن يكون الهدف من التقنية جلب النفع العام ودفع الضرر، كاستخدام الهندسة الوراثية لعلاج الأمراض أو الذكاء الاصطناعي لتحسين جودة الحياة، مع رفض الاستخدامات التي تؤدي إلى العبث بالإنسان أو تهديد استقراره.^{٤٧}

(٤٥) الحشر (٧)

(46) الحجرات (١٣)

(٤٧) ينظر: السرطاوي، البيئة والبعد الإسلامي (١٥٢)

أ. ضابط حفظ الكليات الخمس: أي تقدم علمي يجب أن يحافظ على مقومات الوجود الإنساني: الدين، النفس، العقل، النسل، والمال. فالهندسة الوراثية تمس النسل والنفس مباشرة، بينما يؤثر الذكاء الاصطناعي في العقل والاقتصاد والأمن المجتمعي.⁴⁸

ب. ضابط الأمانة وعدم التبديل: الحد الفاصل بين الابتكار المشروع والتلاعب المحرم هو نية التغيير العبثي للفتنة أو تجاوز دائرة الحاجة الإنسانية إلى دائر التحكم الجيني أو الذكائي الذي يفقد الإنسان دوره بوصفه خليفة مسؤولاً⁴⁹

ويتضح مما سبق أن مسؤوليات الإنسان الحضارية (الأمانة، والعدل، والعلم) ليست مجرد مبادئ أخلاقية نظرية، بل هي إطار عمل الاستخلاف في الواقع المعاصر

فمسؤولية الأمانة تفرض مواجهة مباشرة للإفساد المتمثل في الأزمات البيئية والفساد الإداري ومسؤولية العدل تقتضي إصلاح الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية لضمان الكفاية وتكافؤ الفرص. ومسؤولية العلم تتطلب ضبط التقدم التقني (كالذكاء الاصطناعي والهندسة الوراثية) ببوصلة المقاصد الشرعية وحفظ الكليات.

التعمير التطبيق العملي للاستخلاف

المطلب الأول: بيان مفهوم التعمير

التعمير لغة: عَمَّرَ يُعَمِّرُ، تعميراً، عَمَّرَ المكانَ: أصلحه، بناه.^{٥٠}

التعمير اصطلاحاً: هو الوظيفة الإنسانية المستمرة التي كُلف بها الإنسان، والتي تنطلق من كونه خليفة لله في الأرض (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)^{٥١} ومؤمناً على الأمانة التي حملها

ويتمثل هذا التعمير في بذل الجهد والعمل لإصلاح الأرض وبنائها، واستخراج ما فيها من خيرات، تحقيقاً لطلب الله تعالى المباشر (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)^{٥٢}

(48) ينظر: البوطي، ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية (١٢١)

(49) ينظر: زهرة، الانجاب الصناعي احكامه القانونية وحدوده الشرعية (١٣٢)

(٥٠) مرتضى الزبيدي، تاج العروس (١٤٢/١٣)، احمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة (١٥٥١/٢)

(٥١) البقرة (٣٠)

(٥٢) هود (٦١)

والغاية من ذلك هي ضمان استمرارية الوظيفة الحضارية للإنسان، وتمكين الأجيال اللاحقة من الانتفاع بخيرات الأرض، تحقيقاً لمبدأ الخلافة جيلاً بعد جيل {ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ} ^{٥٣} إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ^{٥٤}

المطلب الثاني: الميدان الإنساني للتعمير وأثره في حياة الإنسان المعاصر

أولاً: التعمير الاجتماعي والمعرفي:

{أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ} نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْحِيًّا ^{٥٥}

ويتضح من تحليل النصوص التفسيرية أبعاد هذا التأسيس الإلهي للتعمير الاجتماعي والمعرفي في النقاط التالية:

• سياق الآية:

جاءت الآية رداً على منطق المشركين الذين استنكروا نزول القرآن على النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، قد كان مقياسهم مادياً بحتاً، حيث اقترحوا أن تنزل الرسالة على رجل عظيم من القريتين (مكة و المدينة)، كالوليد بن المغيرة ^{٥٦}، فجاء الرد الإلهي لينكر عليهم هذا التدخل: {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ}، أي هل هم من يتحكم برحمة الله (وهي النبوة) ليضعوها حيث شاءوا. ^{٥٧}

• المنطق الإلهي:

أقام الله الحجة عليهم بأنه هو الذي يتولى قسمة المعيشة الدنيوية والأرزاق والأقوات ^{٥٨} بين خلقه، وكما أن الله هو الذي يقسم هذه المعيشة، فمن باب أولى أن تكون قسمة الرحمة الدينية (وهي أعظم) بيده وحده، وتعد هذه القسمة الإلهية للمعاش هي الأساس الضروري للتعمير، فلو تساوى الناس جميعاً في الغنى ولم يحتج بعضهم إلى بعض، لتعطلت الكثير من المصالح والمنافع ولما قامت الحرف والصنائع. ^{٥٩}

• حكمة التفاوت:

(٥٣) يونس (١٤)

(٥٤) ينظر: مجموعة من المؤلفين، موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة (٤٥٦)

(٥٥) الزخرف (٣٢)

(٥٦) (الوليد بن المغيرة (٩٥ ق.هـ - ١١٠ هـ) يُعد الوليد بن المغيرة من كبار سادات قريش وأشراف بني مخزوم في الجاهلية، امتاز بثروته وسلطته حتى انفراد بكسوة الكعبة دون مشاركة بقية قريش، كان من قضاة العرب المعترين. أدرك ظهور الإسلام وهو شيخ كبير، فوقف موقف المعارض للدعوة النبوية، ولم يُسلم حتى وفاته، ينظر: الزركلي، الأعلام (١٢٢/٨)

(٥٧) ينظر: ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (٥٨٤/٢٠)، مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية، (٦٦٥٥/٢٠)

(٥٨) الأقوات: جمع قوت، وهو ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام، بطل الركي، النظم المستغذب في تفسير غريب الفاظ المذهب، (٢٥٥/١)

(٥٩) ينظر: ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (٥٨٤/٢٠)، البغوي أبو محمد، معالم التنزيل في تفسير القرآن، (٢١١/٧)،

عبد الرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن، (٧٦٤)

أوضحت الآية أن الله فاضل بين الخلق في الدرجات، هذا التفاوت ليس عشوائياً، بل هو حكمة إلهية، ويشمل التفاوت في الغنى والفقر، وفي الملك والمملوكية، وحتى في المهارات والحيلة وسلطة اللسان، هذا التفاوت، ضروري لقيام مصالح العالم.^{٦٠}

وهذه هي الغاية المباشرة من التفاوت، وهي جوهر التعمير الاجتماعي والمعرفي. وقد اختلف أهل التأويل في معنى (سُخْرِيًّا)، غير أن المعنى الأرجح هو التسخير والاستخدام في الأعمال والحرف والصنائع. فالله جعل الناس، بسبب هذا التفاوت، يحتاج بعضهم إلى بعض، ويتجلى هذا التسخير في أن يستخدم بعضهم بعضاً في السخرة والخدمة، فيسخر الأغنياء بأموالهم الأجراء الفقراء بالعمل.^{٦١}

ثانياً: آلية التعمير الاجتماعي:

والآية المحورية هي قوله تعالى: (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)^{٦٢} تمثل الآلية المنهج التنفيذي للتعمير الاجتماعي، فهي تأمر بالتعاون على البر (وهو جامع لكل ما أمر الله به) والتقوى (جامع لكل ما نهى عنه)، هذا التعاون يشمل القول والفعل، ويتطلب مخالطة إيجابية للناس.

وفي المقابل، تضع الآية الضابط الأخلاقي بالنهاي عن التعاون على الإثم (المعاصي) والعدوان (التعدي على حقوق الخلق).

وفي حياة الإنسان المعاصر، يُطبق هذا المنهج بالتعاون على المشاريع النافعة (كالباحث العلمي) ووضع أنظمة تمنع الفساد. والأهم أنه لا يقتصر على الرضا السلبي للشر، بل هو إصلاح إيجابي يتجلى في منع الظالم عن ظلمه، وتختتم الآية بالردع الإلهي (وَاتَّقُوا اللَّهَ)، الذي يربط منهج التعمير الديني بالرقابة والعقاب الأخروي^{٦٣}

الخاتمة

تؤكد الدراسة أن وجود الإنسان وهدفه مرتبطان بمشروع إلهي متكامل يقوم على التكريم والاستخلاف والتعمير، حيث يُمنح الإنسان الأهلية الوجودية والأداة المعرفية والمنهج والموارد التي تؤهله للقيام بمسؤولياته الحضارية وتحقيق هذه المسؤوليات عبر الأمانة والعدل والعلم، ويصبح التعاون البناء والاعتماد المتبادل بين الناس أدوات رئيسية لضمان استمرارية الوظيفة الحضارية وتحقيق الإصلاح الإيجابي المستمر في المجتمعات على أساس العدل والأمانة لا على أساس الاستغلال أو الفساد سواء المالي أو الإداري أو البيئي، كما تؤكد على أن غياب هذا الفهم المتكامل للثلاثية أسهم في تعميق أزمات الواقع المعاصر وتأثيرها المباشر على مسار التنمية المستدامة والإضرار بالمستقبل والأجيال القادمة.

(٦٠) ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (٨٣/١٦)، عبد الرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن، (٧٦٤)

(٦١) ينظر: عبد الرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن، (٧٦٤)، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٥٢٧/٦)

(٦٢) المائدة (٢)

(٦٣) ينظر: البغوي أبو محمد، معالم التنزيل في تفسير القرآن، (٧/٢)، عبد الرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن، (٢١٨)

References

- Auda, Jasser. *Maqāṣid al-Sharī'ah as Philosophy of Islamic Law: A Systems Approach*. London and Washington, DC: International Institute of Islamic Thought, 2008.
- Abū Ḥātim, 'Abd al-Raḥmān ibn Muḥammad ibn Idrīs al-Rāzī. *Tafsīr al-Qur'ān al-'Aẓīm*. 3rd ed. Saudi Arabia: Maktabat Nizār Muṣṭafā al-Bāz, 1998.
- Abū Zahrah, Muḥammad. *Zahrat al-Tafāsīr*. Publication details unavailable.
- Al-Andalusī, Muḥammad ibn Yūsuf Abū Ḥayyān. *Al-Baḥr al-Muḥīṭ fī al-Tafsīr*. 1st ed. Lebanon: Dār al-Fikr, 2000.
- Al-Baghawī, al-Ḥusayn ibn Mas'ūd. *Ma'ālim al-Tanzīl fī Tafsīr al-Qur'ān*. 4th ed. Saudi Arabia: Dār Ṭaybah, 1997.
- Al-Būṭī, Muḥammad Sa'īd Ramaḍān. *Ḍawābiṭ al-Maṣlaḥah fī al-Sharī'ah al-Islāmiyyah*. 1st ed. Syria: al-Maktabah al-Umawiyah, 1977.
- Al-Jawharī, Ismā'īl ibn Ḥammād. *Al-Ṣiḥāḥ: Tāj al-Lughah wa-Ṣiḥāḥ al-'Arabiyyah*. 4th ed. Lebanon: Dār al-'Ilm li-l-Malāyīn, 1987.
- Al-Khaṭīb, Muḥammad. *Awḍaḥ al-Tafāsīr*. 6th ed. Egypt: al-Maṭba'ah al-Miṣriyyah wa-Maktabatuhā, 1964.
- Al-Kuwārī, Khalīl. *Tafsīr Gharīb al-Qur'ān*. 1st ed. Lebanon: Dār Ibn Ḥazm, 2008.
- Al-Majma' al-Fiqhī al-Islāmī. *Al-Talawwuṭ al-Bī'i: Qaḍāyā wa-Mazāyā*. 1st ed. Lebanon: Dār al-Kutub al-'Ilmiyyah, 2011.
- Al-Marsī, Zakariyyā. *Al-Injāb al-Ṣinā'i: Aḥkāmuḥu al-Qānūniyyah wa-Ḥudūduhu al-Shar'iyyah*. Kuwait: Kuwait University, 1993.
- Al-Nāṣir, Aḥmad. *Al-Istinbāt 'inda al-Khaṭīb al-Shirbīnī fī Tafsīrihi al-Sirāj al-Munīr*. Master's thesis, unpublished, 2016.
- Al-Qaraḍāwī, Yūsuf. *Ri'āyat al-Bī'ah fī Sharī'at al-Islām*. Cairo: Dār al-Shurūq, 2001.
- Al-Qayrawānī, Muḥammad. *Al-Hidāyah ilā Bulūgh al-Nihāyah*. Master's thesis. University of Sharjah, 2008.
- Al-Ṣāhib ibn 'Abbād, Ismā'īl. *Al-Muḥīṭ fī al-Lughah*. 1st ed. Lebanon: 'Ālam al-Kutub, 1994.
- Al-Ṣābūnī, Muḥammad 'Alī. *Ṣafwat al-Tafāsīr*. 1st ed. Egypt: Dār al-Ṣābūnī, 1997.
- Al-Sa'dī, 'Abd al-Raḥmān ibn Nāṣir. *Taysīr al-Karīm al-Raḥmān fī Tafsīr Kalām al-Mannān*. 1st ed. Saudi Arabia: Mu'assasat al-Risālah, 2000.
- Al-Sarṭāwī, Fayṣal. *Al-Bī'ah wa-al-Bu'd al-Islāmī*. 1st ed. Amman: Dār al-Masīrah, 1999.
- Al-Tha'ālibī, 'Abd al-Raḥmān ibn Muḥammad. *Al-Jawāhir al-Ḥisān fī Tafsīr al-Qur'ān*. 1st ed. Lebanon: Dār Ihya' al-Turāth al-'Arabī, 1998.

- Al-Ṭabarī, Muḥammad ibn Jarīr. *Jāmi' al-Bayān 'an Ta'wīl Āy al-Qur'ān*. Saudi Arabia: Dār al-Tarbiyah wa-al-Turāth, n.d.
- Al-Wāḥidī, 'Alī ibn Aḥmad. *Al-Wajīz fī Tafsīr al-Kitāb al-'Azīz*. 1st ed. Lebanon: Dār al-Qalam, 1995.
- Al-Zabīdī, Muḥammad Murtaḍā. *Tāj al-'Arūs min Jawāhir al-Qāmūs*. Kuwait: Dār Ihya' al-Turāth, 2001.
- Al-Zarkalī, Khayr al-Dīn. *Al-A'lām*. 5th ed. Lebanon: Dār al-'Ilm li-l-Malāyīn, 2002.
- Al-Zuḥaylī, Wahbah. *Al-Tafsīr al-Munīr fī al-'Aqīdah wa-al-Sharī'ah wa-al-Manhaj*. 1st ed. Damascus: Dār al-Fikr; Beirut: Dār al-Fikr al-Mu'āṣir, 1991.
- 'Aṭīyyah, Muḥammad. *Al-Fasād al-Idārī: Māhiyyatuhu wa-'Ilājuhu fī al-Fikr al-Islāmī*. Iraq: Dīwān al-Waqf al-Sunnī, 2007.
- 'Umar, Aḥmad Mukhtār. *Mu'jam al-Lughah al-'Arabiyyah al-Mu'āṣirah*. 1st ed. Lebanon: 'Ālam al-Kutub, 2008.
- Firdaus, Slamet. "Al-Qur'an dan Pembangunan Lingkungan Berkelanjutan di Indonesia: Analisis Maqashid Syariah untuk Pencapaian SDGs." *Al-Mustashfa: Jurnal Penelitian Hukum Ekonomi Syariah* 7, no. 2. <https://doi.org/10.24235/jm.v7i2.11594>.
- Farḥāt, Aḥmad. *Al-Khilāfah fī al-Ard*. 1st ed. Kuwait: Dār al-Qalam, 1986.
- Ibn 'Ādil, 'Umar ibn 'Alī. *Al-Lubāb fī 'Ulūm al-Kitāb*. 1st ed. Lebanon: Dār al-Kutub al-'Ilmiyyah, 1998.
- Ibn 'Aṭīyyah, 'Abd al-Ḥaqq ibn Ghālib. *Al-Muḥarrar al-Wajīz fī Tafsīr al-Kitāb al-'Azīz*. 1st ed. Lebanon: Dār al-Kutub al-'Ilmiyyah, 2020.
- Ibn Kathīr, Ismā'il ibn 'Umar. *Tafsīr al-Qur'ān al-'Azīm*. 1st ed. Lebanon: Dār al-Kutub al-'Ilmiyyah, 1998.
- Ibn 'Āshūr, Muḥammad al-Ṭāhir. *Al-Taḥrīr wa-al-Tanwīr*. Tunis: al-Dār al-Tūnisiyyah li-l-Nashr, 1984.
- Kamali, Mohammad Hashim. "Maqasid and Sustainable Development." In *Goals and Purposes of Shariah: Maqasid in Theory and Practice*, 315–332. Oxford: Oxford University Press, 2025. <https://doi.org/10.1093/9780197786390.003.0032>.
- Al-Tamīmī al-Iṣfahānī, Ibrāhīm. *I'rāb al-Qur'ān*. 1st ed. Publication details unavailable. Catalogued by the King Fahd National Library.